فى حراسة والدى !

ومن طرائف هذه الفترة أنه عندما كان يدخل أبى مكتبه بعد الظهر كانت تدخل وراءه قطة كان يعتبرها قطته . وكانت أول ما تقوم به هذه القطة أنها تقفز فوق مكتبه وتنتظر منه أن يرحب بها . ثم كان يفتح لها درجا من أدراج مكتبه . فكانت تقفز إلى هذا الدرج وتنام فيه . وإن طال الوقت بغير أن يعيرها اهتماما كانت تقفز من داخل الدرج إلى أعلى المكتب وتقرب من يده التى يمسك بها القلم وهو يكتب ثم تخبط بقدمها الأمامية على هذه اليد محاولة أن يترك القلم ويلتفت إليها . فكان أبى يربت بيده على رأس القطة وظهرها كنوع من الملاطفة فكانت بعد ذلك ترجع إلى الدرج وتستكمل نومها حتى تعود إلى نفس المبادرة بعد ذلك بساعة أو ساعتين . وكان يحدث ذلك كل يوم أثناء عمله بعد الظهر .

وأذكر أنه كان دائما على مكتب أبى – أينما كان هذا المكتب – جهاز راديو يسمع فيه النشرات الإخبارية المختلفة التى تذاع خلال اليوم الواحد ، فكانت قراءة الصحف اليومية والاستماع إلى النشرات الإخبارية من عاداته اليومية .

obeikandl.com

كانت علاقتى بأبى فى أيام الكويت تحولت إلى صداقة حقيقية ، والذى ساعد على ذلك كانت طبيعة الحياة هناك ، فهى هادئة للغاية . ورغم أنه صحيح كان كثير العمل المتواصل فإنه كان لا ينزعج إذا قاطعه أحد أثناء عمله . فكان من الممكن على أن أدخل وأسأله شيئا فيرفع رأسه عن كتابه وقراءته ويرد على أو يناقشنى فيما أريد ثم يستأنف عمله بعد خروجى ، وكأن تدخلى لم يحدث . فلم أسمع منه أبدا كلمة « أنا مشغول الآن أجلى هذا الموضوع لوقت آخر » . لم أسمع منه هذا لا فى الكويت ولا قبلها ولا بعدها ، وكان عمله كأنه شريط فى ذهنه يوقفه عندما يريد ويشغله عندما يريد . ثم إنه كان يستمر فى عمله بدون أن ينزعج إذا فتحنا التليفزيون مثلا فى غرفة المعيشة المجاورة له ، أو استقبلنا ضيوفا أنا وأمى ، فكل ذلك لم يكن يؤثر على عمله أبدًا . أذكر أننا بعد عودتنا إلى مصر من الكويت كانت غرفة المعيشة — وبها التليفزيون أيضًا - مجاورة لمكتبه ومكان عمله . وكانت أمى كثيرة المشاهدة لبرامج التليفزيون ولم يضايقه ذلك فى عمله أبدًا بل بالعكس كنت أشعر أن ذلك يؤنسه ، فكان لا يحب الوحدة ، بل يحب أن يشعر بأن أسرته حوله .

وفى أيام الكويت كنت أتذكر مواقف صعبة بينى وبين أبى فى أيام أسبانيا وهى الأيام التى كان أبى « يربينا » فيها أنا وأختى . أظن أن أسوأ سنوات مرت على علاقتى بأبى كانت عندما كنت فى سن الرابعة عشرة إلى سن السادسة عشرة . وكنت فى هذه

الفترة تلميذة بالمدرسة الألمانية فى أسبانيا . وكان أبى خلال هذه السنوات بالذات شديدًا جدًّا معى ، إذ كان يمنعنى من كل شىء تقريبا إلا المذاكرة . فلم يكن يريد أن أتزاور مع صديقاتى ولا أن أحضر حفلات أعياد الميلاد ولا حفلات المدرسة إلا فى القليل النادر . وكان أيضًا يغضب إذا أطلت فى مكالمة تليفونية ، فكان يقول بمناسبة التليفون أنه اخترع لتبادل الرسائل وليس للثرثرة . وكان دائمًا يقول لى إننا نحن شىء (أى المصريين) وهم شىء (أى الأجانب) ولا يجب أن نصبح مثلهم . فلم أفهم ذلك فى هذا الوقت أبدا لأننى كنت أرى أن أصدقائى وزملائى فى المدرسة والمدرسة كانت مختلطة - محترمون ولم أر عيوبا فيما يفعلون ، ولكنه كان مصمما على أن نعيش حياة مصرية تماما فى أسبانيا . وأحدث ذلك نوعا من العزلة بيننا أنا وأخى وبين أبى الذى كان يمثل لنا الرقيب المستمر . فكانت مناقشاتنا حادة ومطولة ، وكنت دائما أخضع فى آخر الأمر لما يريده لأنه كان فى موقع القوة ، ثم إن كلامه كان دائما مقنعا فى آخر الأمر فهو لم يأمر بشىء بل كان يدخل معى - أو مع أخى - فى مناقشات طويلة بخصوص أصغر الأمور . ولا أتذكر أننا سمعنا منه كلمة واحدة تهيننا أو تجرح شعورنا ، فكان بطبيعته مهذبًا وحساسًا جدًّا يراعى دائما شعور من يواجهه ، سواء أكان من أولاده أم من الغرباء . وكثيرًا ما كانت تحضر أمى هذه المناقشات ولكنها لم تتدخل أبدا حتى لا تنشىء بين أفراد الأسرة أحزابا تفرق بينها .

وكان أبى يطبق هذه الشدة على أخى أيضا ، فلا يتركه كما يشاء بل كان يريد أن يراه دائما جالسًا يستذكر كتبه . وأذكر كيف كان أبى يقول لأخى : « يا ابنى شوف مستقبلك . ذاكر . لا تضيع وقتك » . وكان أخى يرد عليه : « هو مستقبلى هذا لا نهاية له أبدا ؟ ثم متى يبدأ هذا المستقبل ؟ أليست كلها حياة واحدة متواصلة ؟ فكلمة « المستقبل » هذه كانت فى رأيه بمثابة اللغز ولكنه لم يكن يعلم فى هذا الوقت أن عمره قدر له أن يكون قصيرا وأنه لن يرى « المستقبل » الذى عمل الكثير من أجله .

كان أخى وهو صغير يمل من المذاكرة الزائدة فكان يأخذ مجلة من المجلات المخصصة للأطفال ويضعها تحت قمصانه ويدخل الحمام ويقرأها هناك على حريته . فلاحظ أبى أن ابنه كان يمضى وقتا طويلا جدا فى الحمام حتى انكشف الأمر .

استمر أخى مع ذلك فى قراءة هذه المجلات فى الحمام ، إذ كان يخفيها وراء المرآة التى فوق الحوض . وهناك طريقة أخرى كان يهرب بها من المذاكرة الزائدة على حدها ، وهى أنه كان يرسم على مكتب المذاكرة فيظن الجميع أنه يذاكر ، والحقيقة كانت أنه أحيانا كان يرسم وكان رسمه جميلا وذا طابع خاص ، وبقيت هذه الهواية تلازمه حتى توفى رحمه الله فكان رسمه جميلا سواء بالقلم الفحم الأسود أو بالألوان ومازالت رسوماته لدينا

ولكننا نتجنب رؤيتها لأن رؤيتها تذكرنا بأبشع مامر بنا عليه فى حياتنا الأسرية وهو وفاته المبكرة .

وكنا كثيرًا ما نلفت نظر أبى إلى أن بعض الأسر المصرية فى أسبانيا كانت تمنح أولادها الحرية الكاملة ليعيشوا حياة الشباب هناك فكان يقول : « نعم ، إننى أريد ذلك . ولكن من قال إننى أريد أن تصيروا مثلهم ؟ كل أسرة حرة فى تربية أولادها ، وأنا أوجهكم بالطريقة التى أراها ستنفعكم فيما بعد وأثمن رأس مال ممكن أن تحصلوا عليه هو رصيد العلم والمعرفة الذى تحصلان عليه فى سنكم الحالية .

وكان أخى يلاحظ أننا لا نعامل أبدا مثل باقى الشباب الذين حولنا ، ويذكرنى بأننا عندما كنا فى مصر ومازلنا أطفالا كانوا يجعلوننا نذهب لننام فى الثامنة مساءً وندخل السرير ويطفأ النور ثم يقفل باب الغرفة لو كان فى البيت زوار . وبينما كنا نحن ننام كان باقى الأطفال الذين فى سننا يسهرون مع أهاليهم حتى ساعات متأخرة من الليل ، وكنا نحن الاثنين الوحيدين ممن نعرفهم ننام فى ميعاد مبكر حيث كانت تصمم أمى بالذات على ذلك دائما . وبما أننا لم نستطع أن ننام فى هذه الساعة المبكرة فكنا نقرأ تحت غطاء السرير ببطاريات ، كنا قد أتينا بها لذلك الغرض . وعندما كشف أبى وأمى هذا التمرد على النظام لجأنا إلى نظام آخر وهو أن ندخل السرير فى الثامنة ونقرأ بمعرفتهما ساعة تقريبا قبل النوم ثم نطفىء النور . وأرضانا هذا النظام .

وأذكر أن قراءتنا أنا وأخى كانت قراءة موجهة ، أى أن أبى وأمى كانا يختاران كتبا تناسب سننا ، ثم نختار نحن مما اختاراه هما . وظلا يختاران لنا قراءاتنا تقريبا طوال مدة الدراسة المدرسية ، وأذكر بهذه المناسبة أننى مرة من المرات فى سنوات « التربية الشديدة » التى ذكرتها تمردت على أبى فى توجيهاته القرائية ، وكان قد حذرنى بألا أقرأ الروائيين الروس قائلا إن وقت قراءة أعمالهم سيأتى قريبا . أذكر أننى انزعجت بينى وبين نفسى ، وقرأت بدون أن يعلم هو ، كل ما استطعت الحصول عليه من روايات دستوفيسكى وتولستوى بالذات ، وأنا ما بين سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة . واليوم عندما أسترجع هذه الفترة من عمرى أتمنى أن أكون قد سمعت كلام أبى وتحذيراته فى هذا الوقت ، لأن مثل هذه الكتب بها شخصيات ووصف لمواقف لا يستطيع أن يفهمها قارئها إلا بعد الحصول على درجة معينة من النضج لأنها غالبا ما تفزع صغير السن أو تجعله يفهمها خطأ وهذا ما حدث لى فى الماضى .

عندما أسترجع هذه المناقشات وهذه المواقف اليوم أجد أن أبى كان على حق ، وأنه كان يواجه مسئولية كبيرة فى تربيتنا ، فكان عليه أن يوجهنا وأن يربى فينا سلوكا وقيما نكوّن بها شخصياتنا وفى نفس الوقت كان يحاول أن يبعد عنا ما قد يضرنا من عادات الشباب الغربى . والنتيجة كانت أنه أنشأ فينا حبًّا واحتراما نادرين لمصر وكل ما فيها .

ولم تستمر هذه الشـدة في التربيـة إلا بضع سنوات وفهمنا بالتدريج ما يريده منا وفهم هو موقفنا أيضا فالتأثير بينه وبيننا كان متبادلا وإيجابيا ، أذكر – على سبيل المثال – أنني عندما حصلت على ما يقابل في مدرستي هناك الثانوية العامة في مصر اقترح علي أبي أن أدخل إحدى الجامعات الأسبانية ، وأن اتخصص سواء في الأدب الأسباني أو التاريخ . كان ردي يومها أنني كنت أريد أن أدرس « بمدرسة التراجمة » بجامعة جنيف بسويسرا . فاندهش وقال : « وتعيشين وحدك هناك ؟ » قلت : « نعم ، إنني أجيد عدة لغات وأحبها ، ثم إنني أحاول الاعتماد على نفسـي » .

أذكر تماما أنه لم يناقشني كثيرًا في اقتراحي ، وسألني أن أتركه يفكر في الأمر . ومرّ أسبوع ومرّ أسبوع آخر على اقتراحي هذا ومن حين إلى آخر كنت أسأله : « هل فكرت في الأمر ؟ » وكان رده : « نعم ، مازلت أفكر فالأمر ليس بسيطا ثم إنه مكلف للغاية » .

وبعد أسبوعين أو أكثر بقليل استدعاني ووجدت معه مظروفين كبيرين من جامعة جنيف . كان قد كتب ليطلب من هذه الجامعة الأوراق التي تعرفنا « بمدرسة التراجمة » هذه ثم متطلباتها وفتح المظروفين الواحد تلو الآخر وشرح لي ما فيهما ، وطلب مني أن أراجع الأمر وحدي وأن أفكر فيه جيدا وأنه سيقف معي أيا كان قراري . وصممت على رأيي فرضي بالأمر .

كانت الدراسة هناك ستغطي خمسة فصول دراسية أي سنتين

ونصف ، وكان على جميع المتقدمين أن يحضروا وينجزوا امتحانات دخول تتطلب الكثير من المذاكرة . وحقيقة أنه ساعدنى كثيرا فى تحضير هذه الامتحانات خلال الصيف .

وجاء وقت السفر . وكانت ستقام امتحانات الالتحاق فى مدينة « فريبور » السويسرية . وسافر أبى معى . كنت أتظاهر بالقوة وبثقة النفس ولكننى كنت أشعر بخوف كبير فى داخلى من التجربة كلها ، ولم أتصور بوضوح كيف أعيش بعيدا عن بيتى وأسرتى التى كانت بالنسبة لى بمثابة الحماية إلى حد كبير . أذكر ن الامتحانات كانت كثيرة العدد ، وكنا سنمتحن صباحا ومساءً : أى بعد الظهر) . وأذكر أن الجامعة هناك كانت قد خصصت ل إقامة مع باقى المتقدمين لهذا الامتحان . فأوصلنى أبى إلى هناك وحجز لنفسه مكانا فى فندق قريب . وكان فى كل صباح يمر على ليرافقنى إلى مقر وقاعة الامتحان . ثم أدخل القاعة وكان هو نتظرنى فى خارجها يقرأ الصحف أو كتابا أحضره ، وعندما خرج كان يسألنى بالتفصيل عن الأسئلة وعن إجاباتى ثم كان رافقنى إلى مطعم ونتناول الغداء فيه معا ؛ ثم يرجع معى مرة خرى إلى قاعة الامتحانات . وأذكر أنه لم يبعد أبدًا عن هذه قاعة ، فكنت أراه بمجرد خروجى . ثم كان يرافقنى إلى مطعم نتاول العشاء ويوصلنى إلى حيث السكن الجامعى الذى أبيت فيه يعود مرة أخرى فى الصباح الباكر حتى تمضى امتحانات اليوم ثانى ، وكانت أيام الامتحانات خمسة . وأذكر أننى قلت له

أثناء هذه الأيام : « ألا تلاحظ يا أبى أننى الطالبة الوحيدة التى يصاحبها أبوها هنا ؟ إن كل من حولى يجيء وحده والكثيرون منهم فى سنى . » فكان يقول : « معلهش ، هم شيء ونحن شيء ، فأنا أشعر أن امتحاناتك هذه كأننى أنا الذى أؤديها » .

ونجحت فى الامتحانات والحمد لله . ورافقنى أبى إلى جنيف وتعرفت على الجامعة ومقرها (وكان هو يعرفها منذ زمن طويل) ودفع لى مصاريف الدراسة ، ثم ذهب معى إلى المدينة الجامعية ، وتسلمنا الغرفة التى كانت ستكون مقرى أثناء إقامتى هناك . ثم ذهب معى إلى بنك وفتح لى حسابا وحدد المبلغ الذى كنت سأستلمه منه فى أول كل شهر . ثم عرفنى على عميد كلية الآداب بجامعة جنيف إذ كان من أصدقائه ، ثم عرفنى بأستاذين آخرين بنفس الكلية ، ثم جلس معى ونظمنا « الكورسات » المختلفة التى كنت سأحضرها خلال مدة إقامتى هناك ، ثم اشترى لى اشتراكا موسميا حتى أسافر بالقطار إلى زيوريخ لكى أمضى نهاية كل أسبوع مع أهل أمى ، ثم عرفنى على الشوارع الأساسية فى جنيف وأحضر لى خريطة لها . واتفقنا أننى سوف أمضى عطلة عيد الميلاد (الكريسماس) وإجازة الصيف مع الأسرة فى البيت فى أسبانيا وكانت تذكرتى تذكرة ذهاب وعودة . ثم قال لى : « والآن نذهب لنحدد ميعاد عودتى إلى مدريد » . وانكمش قلبى وأذكر أننى قلت : « هكذا تسافر وتتركنى ؟ لماذا لا تبقى معى

مدة بداية الدراسة على الأقل ؟ » فضحك وقال أن مهمته قد انتهت وأن أعباء عمله تنتظره فى مدريد .

وجاء يوم سفره ورافقته إلى المطار ومن آخر الأشياء التى قالها لى قبل مغادرته هو أن أتصرف دائما مرفوعة الرأس وألا أقوم بأى شىء قد أخجل منه بعد ذلك وأن يوفقنى ربى . وبقيت فى المطار حتى سمعت من خلال « الميكروفونات » أن طائرته غادرت المكان . ثم امتلكنى خوف شديد وعدت إلى غرفتى فى المدينة الجامعية ، وأذكر تماما أننى نمت بدون تناول وجبة العشاء فى هذا اليوم إذ كنت أشعر بخجل يفوق التصور منعنى من أن أنزل المطعم وأدخله وحدى ، وأنا أعرف تماما أن كل من فيه غرباء علىّ .

ومرت هذه السنوات بسويسرا على ما يرام وعندما أتذكرها الآن ألاحظ أننى كنت خلالها شديدة مع نفسى وأنا وحدى أكثر من شدة أبى على وهو معى .

وعندما سألته بعد مضي سنوات طويلة على هذه الأحداث عما إذا لم يكن يخاف على عندما تركنى وحدى فى سويسرا ، وعاد إلى أسبانيا فقال إنه كان خائفا بطبيعة الحال ، ولكن يجب على كل أب وأم أن يتركا أولادهما لكى يتصرفوا ويعتمدوا على أنفسهم فمهمة الوالدين أن يؤسسوا تربية أولادهم ثم يتركوهم يكونون شخصياتهم ، فالخوف الزائد الظاهر على الأ ''د يضعف

شخصياتهم ، ويجب أيضا أن يستند الوالدان إلى إيمانهم بالله وأن يوكلا له أمر أولادهما .

وتصرف أبي مع أخي مثل تصرفه معي فغادر هو وأمي أسبانيا متجهين إلى الكويت ، وكان أخي مازال في المرحلة المدرسية فتركاه وحده لكي ينال شهادة الثانوية من مدرسته في أسبانيا . كان أبي رحمه الله كثير التوكل على ربه ، وكان لذلك لا يرى أن هناك أمرا مستحيلا في الدنيا ، فكل شيء كان ممكنا مادام الإنسان مؤمنا إيمانا حقيقيا . وكان طبعه لذلك السبب أيضًا هادئًا وتصرفاته في منتهى العقلانية والتوازن ، وأنا لا أتذكر أنه في مرة من المرات فقد أعصابه واشتبك في عراك مع أحد أو « شتم » إنسانا ، فلم يكن هذا من طبيعته أيا كان الظرف الذي يواجهه أو الإنسان الذي يقابله .

وغادر أبي وأمي أسبانيا وذهبا إلى الكويت وكنت أنا في جنيف ، وبقي أخي في أسبانيا وكان قد قرر أخي أنه يريد دراسة الطب في مصر بعد ذلك ، وكان قد اتخذ هذا القرار وحده وحققه بعد ذلك بالفعل .

الأسرة مع الدكتور محمود مكي والفنان محمد صبري في إحدى مطاعم مدريد